العدد التاسع والعشرون

المحور : الهوية والانتماء ومعايير العلاقات بين الأفراد والأمم

تداول الأمم في الكتابة التاريخية العربية الحديثة من المماليك إلى العثمانيين

مهند مبيضين *

يرى كلود كاهن أن مقدمات المؤرخين العرب المسلمين في القرون الأولى حفلت بالزمان مدركة تبدلاته وتغير أحواله، إلا أنها غلفت بطابع اعتذاري مسبق عند التأليف في ميدان التاريخ(1)، ولكن هذه الملاحظة لم تستمر على ما يبدو من خلال نماذج تاريخية حديثة في الكتابة التاريخية، وهذه النماذج نذكر منها الجبرتي في مقدمته لكتاب "عجائب الآثار"(2) ومحمد خليل المرادي في "سلك الدرر"(3)، وابن الحمصي في "حوادث الأقران"(4)، وهؤلاء وغيرهم(5) تقدموا للكتابة بوعي وإدراك يتجاوز تعريفات وفَهْمَ مؤرخي العصور الوسطى التي جعلت التاريخ إخباراً عن الماضي وبحثاً في أحوال الزمان(6).

سنة 1212هـ/1797 م كتب عبد الرحمن بن حسن الجبرتي (ت: 1240هـ/1825م) مفسراً وصول "طائفة الفرنسيس" ما نصه: "سنة إحدى عشرة واثنتي عشرة ومائتين وألف لم يقع فيها من الحوادث التي تتشوف لها النفوس أو تشتاق إليها الخواطر فتقيّد في بطون الطروس سوى ما تقدمت إليه الإشارة من أسباب نزول النوازل وموجبات ترادف البلاء المتراسل ووقوع الإنذارات الفلكية والآيات المخوفة السماوية...ومن أعظم ذلك حصول الخسوف الكلي في منتصف شهر ذي الحجة ختام سنة اثنتي عشرة بطالع مشرق الجوزاء المنسوب إليه إقليم مصر وحضر طائفة الفرنسيس إثر ذلك.."(7).

هذا الربط بين حدث كوني طبيعي ووصول الحملة الفرنسية لمصر يؤكد مدى حضور الغيبيات كنقيض للعقليات في التاريخانية العربية، ومع أن ثمة نزوعا للاحتكام العقلي في بعض أعمال المؤرخين الحديثة، إلا أن مسائل الغيب وظواهر الطبيعة وعلاقتها في حركة التاريخ ظلت حاضرة في حقل التاريخ، والسؤال الذي يمكن البحث عنه في هذا المقال هو: كيف رأى المؤرخون العرب مفتتح القرن السادس عشر الميلادي، وكيف دونوا حدث الوصول العثماني للمنطقة.

تاريخ جديد: حربٌ مقدسة وسلطنةٌ تراث أخرى:

حين دون "قطب الدين النهراولي" المتوفي عام990هـ/1582 في كتابه "البرق اليماني" تاريخ بلاد اليمن في القرن العاشر الهجري، كان واعيا لحدث وصول البرتغال للهند، ومع

أنه كان يكتب تاريخ اليمن إلا أنه كان يعي معنى وصول البرتغال للمنطقة العربية؛ إذ يقول:

"وقع في أول القرن العاشر من الحوادث الفوادح النوادر، دخول (الفرتقال) اللعين، من طائفة الفرنج الملاعين لديار الهند، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبته في الحبر ويلجون في الظلمات، ويمرون بموضع قريب من جبال القمر وهي مادة في أصل بحر النيل ويصلون للمشرق، ويمرون بموضع قريب من الساحلفي مضيق.. في مكان تتكسر فيه السفن ولا ينجو منهم أحد.."(8).

ومع أن الصفات الموضوعية لنص النهراولي تحيله إلى مجرد خبر تاريخي، إلا أن السؤال الذي يطرحه النص هو هل امتلك المؤرخون العرب -ومنهم النهروالي- وعياً تاريخيا لذلك الحدث، حتى لو لم يعبروا عن تصريحٍ وقصد، وهل يمكن تلمسه من نظام السرد نفسه، وهل نتج عن الحدث وعيٌ بزمنية اللحظة التي كانت تمر بها الأمة؟ ربما يكون التدوين شكلا من أشكال ذلك الوعي؛ لكن بالمجمل يبدو أن الوقوف على مدونات التاريخ العربي تحيلنا إلى سعي وقصد في الحفاظ على أخبار الزمان الذي عاشه المؤرخون حتى لو كان من نوع "الحوادث الفوادح النوادر" كما عبر النهروالي مسبقا.

في القرن السادس عشر كانت البلاد العربية على موعد مع مشهد جديد لتاريخها المحدَث؛ وهو تدافع كان يعكس تقدم عالم غربي ناهض نتيجة حركة فيودالية قوامها المؤسسات ونمط الإنتاج والنظام الاجتماعي والأسلوب في التنظيم العسكري، وقد أجاب "جورج دوبي" عن ذلك ببُعْد نظر، فقد ألح على "تمدد التاريخ الاقتصادي عبر تاريخ العقليات".

فمنذ القرن السادس عشر نما مجتمع جديد في الغرب؛ المجتمع الرأسمالي الذي كان ثمرة نمط إنتاج جديد، وإفراز للاقتصاد النقدي، وهو أيضا نتاج مواقف جديدة إزاء العمل والنقد، وحصيلة طموح الأسر الحاكمة لحضارة كانت مشبعة بخصوبة أسطورية كبيرة تجاه الشرق، وهي حضارة ستظل مسكونة بالوصول إليه والإطباق عليه، وستشرع منذ منتصف القرن الخامس عشر بدفع المستكشفين وستفتح القرن السادس عشر من جهة الجنوب العربي، وسترسل قوارب أمرائها إلى أراضٍ جديدة؛ لتكون وطأة أقدام المكتشفين والبحارة عليها بداية لحد فاصل للدنيا، فيقسمها إلى عالمين: واحد قديم وآخر جديد(9).

المواجهة الحضارية كانت مفتوحة نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وهي مواجهة بين شرق متهاوٍ وغرب واثب، وكان هناك دول مفتاحية حملت راية التوسع فيما وراء البحار: البرتغال وقشتالة- أرغون والأقاليم المتحدة (هولندا) ومن ثم فرنسا وإنجلترا(10)، ووضع العام1499 بداية حقبة من التفوق الغربي على الشرق المسلم حين عاد فاسكوداجاما Vkasco da Gama للبرتغال محملا ببضائع الهند بعد أن عبر رأس الرجاء الصالح.

أعقب ذلك العبور استصراخُ أمراء وسلاطين الهند حكام البلاد العربية والإسلامية ليمدوهم بالمساعدة في حرب الغرب المقدسة. ففي العام1505 م كتب ملك البرتغال "عمانويل" الأول إلى البابا يوليوس الثاني رسالة يقول فيها: "إنه ليس عازماً على المضي في قتل التجارة المملوكية فقط؛ بل إنه سيجاهد في سبيل المسيحية حتى يجعل من مكة هدفاً لمدافعه وجنوده"(11).

ومهما يكن من أمر هذه الرسالة، فإنها كانت تنذر بمواجهة مقبلة بين القوى المتنافسة: البرتغال ودولة المماليك في مصر والشام والحجاز، وقد حاول المماليك التصدي للخطر البرتغالي ودفعهم، وتجلى ذلك في عدد من الحملات العسكرية، ومن أشهرها حملة حسين الكردي "على رأس طائفة كبيرة من اللوند(12) كبيرهم سليمان الريس"(13) الذي تولى قيادة الأسطول المملوكي – الكجراتي المشترك، والذي عرف عند البرتغاليين باسم Mircem الذي تصدى للبرتغال في بحر الهند، وهزم في موقعة "ديو" البحرية في الثالث من فبراير 1509م.

وكانت معركة ديو - التي تعرف أيضاً باسم معركة جاول الثانية - إحدى أهم المعارك الفاصلة في التاريخ الحديث، وتركت نتائجها آثاراً حاسمة في الصراع على النفوذ والحكم في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي(14) فبعدها بقليل وصل "الفونسو البوكيرك" لمضيق هرمز، وبدأ يهدد المنطقة العربية بشكل مباشر(15)، ولم ينته التفوق البرتغالي في سواحل الخليج العربي إلا بعد طردهم من سواحل عمان العام 1658م.

كانت معركة "ديو" البحرية بداية لإنشاء نظام جديد في المنطقة العربية، فهي -وإن أنهت التفوق العسكري البحري المملوكي- قد سمحت وهيأت لدخول قوة جديدة حلت محل المماليك في الشام ومصر والحجاز، وهي السلطنة العثمانية التي ستُدخل المنطقة العربية تحت حكمها، وستخوض مواجهة بحرية ثانية مع البرتغال في معركة ديو الثانية عام 1538 م؛ إذ كان وقتها حسين باشا قائدا للأسطول العثماني في عهد السلطان سليمان القانوني، الذي قام بمحاولات عدة لإنهاء حكم البرتغال في المنطقة بمعاونة بعض حكام الهند ومنهم ملك كامباي المسلم(16).

الدخول البرتغالي في المنطقة تزامن مع بداية التحول العثماني نحو المنطقة العربية بعد أن كانت أراضِ الدولة العثمانية ممتدة في الأناضول والبلقان قبل العام 1516م، وهذا الدخول وإن كان مختلفا عن العثماني، إلا أنه يطرح الحدث التاريخي من بابي الهوية والتمايز، أو المغايرة حتى عندما تختلف وتتباين دلالات الحضور أو التبدل في الأقوام والحكم والسلالات.

وفي حين كان البرتغاليون يطرقون البلاد العربية من الجنوبِ، كان العثمانيون يدخلونها من الشمال، وكان كلا الحضورين: البرتغالي والعثماني نتيجة لحالة الضعف المملوكي التي سمح ضعف قوتها لجديدٍ قادم يملأ الفراغ الذي أوجده الضعف في سلطة القاهرة السياسية.

مع وصول العثمانيين إلى حلب ثم دمشق ثم القاهرة ثم الحجاز كانت سلالة مسلمة تحل محل سلالة أخرى، مع أن الوجود العثماني كان محلّ خلاف بين المؤرخين: بين من يراهم فاتحين أو من يراهم غزاة(17)، إلا أن المصادر القريبة من تلك الحقبة -وإن تباينت في البداية بحكمها على القادم الجديد (العثمانيين)- قد انتهت بالإقرار والقبول بهم، باعتبارهم حكامًا مسلمين بالدرجة الأولى.

ومع أن انتقال الحكم لآل عثمان لم يكن يسيرا أو من دون خسائر؛ فإن مصادر الحقبة الانتقالية المملوكية العربية العثمانية تقدم الوقائع المنضبطة بزمان الحدث والمعاصرة لانتقال الحكم، وهذا الانضباط الذي لا تختفي فيه المواقف والميول التاريخية لدى المؤرخين في مدوناتهم، مع أنه يمدنا بتركيب تاريخي يمزج بين التاريخ النقلي المباشر والرؤية الأيدلوجية، نتيجة الموقف من السلوك العسكري العثماني إزاء الرعية المسلمة، إلا أنه يظل في النهاية جزءا من وظيفة التاريخ وموضوعه العام الذي قرره ابن خلدون للمؤرخين في مقدمته بقوله:

"إنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها.."(18).

التمكين الحضاري والبحث عن العدل السلطاني:

تعد تجربة الشيخ الصوفي "ابن علوان"- في رسائله "نصيحة الشيخ علوان إلى السلطان سليم بن عثمان" - موثقة للحظة الانتقال المملوكي العثماني، وهذا المخطوط يشير إلى رؤية جديرة بالدراسة لمفهوم التمكين الحضاري الذي جعل أساسه العدل، وهي دعوة لتحقيق الحكم العادل.

وعنوان المخطوط دالٌ على محتواه، فهو "نصائح شريفة ومواعظ ظريفة للسلطان والخليفة ابن عثمان"(19)، وفي النص يبدأ الشيخ الصوفي الحموي علي بن عطية بن الحسن الحداد الحموي- مؤسس أسرة علوان في حماه والمولود سنة (873هـ/ 1468م)- والمتوفى سنة (936هـ/1530م) الرسالة بالتأكيد على الدعاء للسلطان العثماني والاستشهاد بالقرآن والسنة النبوية بما يؤكد وجوب عدل السلطان في رعيته وعدم جوره؛ فالسلطان "ظل الله في الأرض، به يقوم الحق ويظهر الدين، وبه يدفع الله الظلم ويهلك الفاسقين"(20).

وبعد الاستشهاد المقتضب من القرآن والسنة، يبدأ ابن علوان الحديث عن التمكين في الأرض الذي يحدده بشروط منها: "إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة قولا وفعلا في خاصته: نفسه ورعيته، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"(21).

يبدأ ابن علوان ممارسته الفقهية السلطانية برسالته مذكّرا السلطان سليم بمسؤوليته تجاه رعيته، مخاطبا إياه بضرورة تذكر سلوك الرسول - صلى الله عليه وسلم - في رعاية

أحوال أمته، ثم يفرد فصلاً لمسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو يبدو ساخطاً على ما كان سائداً في عصره من المنكرات وكما يقول:

"وليت السؤال لو كان الراعي مطمئناً مستريحاً، وإنما يقع وقد أحاطت به الأوجال وأراعته الأهوال وخالطه الرعب والزلزال من هيبة الملك الكبير المتعال حافيا عاريا ماشيا خائفا وجلا مذعورا مرتاعا، وكيف لا يرتاع وقد جثت الأمم على رُكبها، وتعلق من تعلق من الأنبياء بساق العرش، وعنت الوجوه -أي خضعت وذلت- للحي القيوم، وقد خاب من حمل ظلما"(22).

في بداية الرسالة يذكّر ابن علوان السلطان سليم أن أبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم مجلسا "إمامٌ جائر"(23)، ويعقد فصلا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدعو إلى عدم مخالفة الشرع؛ لأن ذلك "كفر وخروج عن دين الإسلام"(24).

وللرغبة في تحقيق العدل وإقامة حكم الشرع يحصر ابن علوان المنكرات السائدة في عصره، ومنها "قتل النفس التي حرم الله تعالى"(25)، وانتشار الزنا، "ومن المصائب العظام إظهار الزنا ببلاد الإسلام بحيث يقطع الأمير على البغية أعني الزانية..وتظهر بتلك القطيعة وتجاهر بمرادها الشباب والفساق عن أنفسهم في الشوارع والطرقات، وينُصب لهن والٍ يلي أمرهن، ويتقاضى ذلك المضروب عليهن منهن بإذن ولي الأمر وهو أمير البلدة أو أمين بيت المال، ويؤخذ ذلك المال المسمى بعرف الشرع العزيز بمهر البغي.."(26).

بعد ذلك يتمنى الشيخ على السلطان سليم منع بخس الناس حقوقهم وأكل أموالهم وأخذها بطريق غير شرعي(27)، ثم يتابع قوله: "ومن المنكرات التي يتعين على ولي الأمر -أدام الله له السعادة- تغييرها وإزالتها: نهي الرسل المبعوثين من جنابه وحضرته وهو الولاة، عن التعرض لأخذ دواب المسلمين غصبا وظلما، أو منعهم من ضربهم أو شتمهم لا في الصحراء ولا في البنايات والعمران.."(28).

ولا يبدو ابن علوان ممالئا للسلطة العثمانية الجديدة، وهو المتنقل بين دولتين: المملوكية والعثمانية، فقد ورد عنه أنه نظم قصيدة ينتقد بها الدولة المملوكية جاء فيها:

بدولة من ولي الشام مع مصر وكنا نود العدل لو كان ظاهراً

على العداة الشنعاء في زمن الغوري فما هو إلا الظلم زاد مضاعفاً

وبناء على الواقع الذي عرضه ابن علوان في رسالته نجده يتمنى على السلطان الجديد أن "ينظر بعين اللطف في حال رعيته ويبرز مراسيمه الشريفة بالمنع من مثل هذه المفاسد مع اغتنام دعاء الرعية.."(29).

ومن الواضح أن ابن علوان لم يغير موقفه من الظلم وتعديات رجال الدولة بعد انتقال

الحكم ودخول العثمانيين لحلب، فأنكر على ولاة الأمر الجدد(العثمانيين) عنفهم وتعسفهم في إيذاء الناس، واغتصاب حقوقهم وتوقيع العقوبات البدنية والنفسية، وهاجم سلوك العسكر تجاه الرعايا، وكان يرى أن من المنكرات "الأخذ من القرى والفلاحين ظلما"، وهو المال الذي كان يسمى "حماية أو حوطة على قانون الأمراء الجبابرة لا ذكرهم الله بصالحه ولا جزاهم عن المسلمين خيرا، واصل هذه الحماية أنه لما كثر ظلمهم وعم طغيانهم وصار السلطان يطلب من **نائب** كل بلد مالا مستكثرا من قبل التولية وبعدها مدة التولية.."(30).

ويقدم ابن علوان شفاعات بالمظالم التي عاصرها، فقد أنشد شعراً ينتقد الإدارة الجديدة لبلاد الشام مع وصول العسكر العثماني:

حادوا عن التنزيل والقرآن يا أيها الملك المؤمر قيادة

ما حل من جور ومن عدوان هلا كشفت عن البلاد بكاشف

وهذا الوصف عمقه ابن علوان في رسالته في فصل حث فيه السلطان على تغيير المنكرات وجاء فيه:

"ومن المنكرات بخس الناس حقوقهم وأكل أموالهم وأخذها بغير طريق شرعي فإن ذلك ظلم، والله تعالى يقول في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) وقال تعالى: (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ). ومن المنكرات التي ينبغي على ولي الأمر - أدام الله له السعادة- تغييرها وإزالتها بنهي الرسل المبعوثين من جنابة وحضرته: نهي الولاة عن التعرض لأخذ دواب المسلمين غصباً وظلماً ومنعهم من ضربهم وشتمهم لا في الصحراء ولا في البنيان والعمران، فإن ذلك واجب عليه أمام الله"(31).

ويمضي ابن علوان في رسالته بالحديث عن المنكرات التي عاصرها أو كان يشهدها في زمانه ومنها: أخذ أهل الإسلام "إلى السجن بالضرب والإهانة"، ويقف على المنكرات التي شاهدها في عصره، ومنها انتشار الزنا، وتحصيل "مال البغية على الخمارة؛ أعني البقعة التي يباع فيها الخمر بطمأنينة من حيث إذن الأمير، ويضاف ذلك إلى الخزانة السعيدة أعني خزانة بيت المال أو ينفق على الجند، وذلك مما لا يرضي الله ورسوله"(32).

ومما يشير إليه ابن علوان، ويدعو إلى رفعه عن الناس؛ لأنه مخالف للشرع الإسلامي ومصادره ما جاء في قوله: "...ومن المنكرات هجم الطارقين من العسكر على بيوت الرعية، والدخول على حريمهمُ والنزول في ديارهم قهراً، فإن ذلك من المخالفة للكتاب والسنة..فقد حارت الرعية إن أكرموا ضيف الجند حصل منه الضرر.. مع هذا يتعنتون عليهم بطلب الدجاج والبيض وسقي الدواب وحراستها وغير ذلك، وولي الأمر ضاعف الله لإمداده بالسعادة لا يشعر بشيء من ذلك.."(33).

رسالة ابن علوان بمضامينها العامة كانت تعكس أسباب انهيار الدولة المملوكية، وهي في أفكاره ملخصة لحال عصرها وزمانها، والحديث عن العدل والإمام العادل والإمام الجائر، ووجوب إقامة الشريعة، وهي انعكاس لما كان شاهده في لحظة انتقال السلطة من المماليك للعثمانيين، وهو توق إلى حكم جديد بمضامين الشرع، فهو بعد مقدمة عن وجوب الحكم بما أنزل الله يعقد فصله الأول مطالبا السلطان العثماني "بإنفاذ مراسيمه الشريفة وكتبه الكريمة إلى أطراف الممالك وأقطار البلاد بأمر الخاص والعام من الذكور والإناث والأحرار والعبيد التابع والمتبوع من المكلفين بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، بإقامة الصلاة على ما يقتضيه نظره من مذهب إمامنا الذي قلده في الدين..."(34).

وباب الحكم الصالح عنده هو الاحتساب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو يُذكر السلطان بأنه ما كان من سبب لهلاك وفناء "الأمم الماضية وما لعنوا ومسخوا قردة وخنازير إلا من عدم تغيير المنكر وإنكاره"(35).

وبعد الشرح يطالب السلطان بإزالة تلك البدع "الموجبة لحلول غضب الله وسخطه على أهل تلك الناحية"(36)، ومن منكرات عصر ابن علوان أخذ مال الناس وحقوقهم "بطريق غير شرعي"(37)، وهو ما جعله يتمنى "أن يشرح الله صدر مولانا في إماطة هذا الأذى ورفع هذه الغمة عن المسلمين"(38).

ويقف ابن علوان على مظالم عصره، ومنها "إذ أقدم مبشر بظفر ونصر وأَخْذ بلدة وقتل عدو وغنيمة ماله ونحو ذلك يأمر نائب البلد في المحلة المسمى بالكحينا أن يجمع من محلته مالا"(39).

ولا تقف رسائل ابن علوان عند عرض "منكرات عصره"؛ بل إنه يطالب السلطان العثماني بإبراز "مراسيمه الشريفة بالمنع من مثل هذه المفاسد"، ولعل ما يصفه ابن علوان من سلوك للعسكر في عصره ما يوضح النظرة التي صاحبت دخول الجند العثماني إلى حلب فهو يقول: "ومن المنكرات هجم الطارقين من العسكر على بيوت الرعية والدخول على حريمهم، والنزول في ديارهم قهرا؛ فإن ذلك من المخالفة للكتاب والسنة.." وفي تفاصيل هذه المظلمة وأصل هذه الحماية أنه لما كثر ظلمهم وعمّ طغيانهم، وصار السلطان يطلب من نائب كل بلد مالا مستكثرا قبل التولية وبعدها مدة النيابة، وكانت كل قرية لأناس مخصوصين منهم الضعيف والقوي؛ فكان القوي يراعونه لقوته ولا يبالغون في ظلم أهل قريته رياءً وسمعة لا- لله تعالى، والضعيف لا- يبالون فيه ويفتكون بناحتيه وأهل قريته فقراء...، وجعلوا لهم قطيعة من المال كل سنة؛ ليمنعوهم من مظالم أمير البلد ونائبه فيرسلون إليه فيمتنع، فلما نسخ الله تعالى تلك الدول، وسلخ ليل تلك المظالم والظلم جاء أمناء المقام الشريف فسلكوا مسلك أولئك العصابة الطاغية، فأضر ذلك كثيرا من فقراء البلاد ومساكينها، وصاروا يستغيثون الظلم كما يخرون من الجور أول مرة والله المستعان، وغفل الإخاء عن خيانة الله تعالى وخيانة رسوله ونسوا قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا- تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون...) طلبوا صلاح دنيا

الملك الذي آمنهم، فأفسدوا آخرتهم وآخرته؛ ذلك لأن كل درهم يؤخذ بغير طريق شرعي لابد من أدائه لمستحقه(40).

وتمكين الأمم في الأرض عند ابن علوان مشروط بالآية الكريمة (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة) وهو يشرح التمكين بالنصر والتأييد والإمداد والتسديد للناصرين لدينه، الحافظين لحدوده، المتمثلين لأمره، المقيمين الصلاة، المؤدين الزكاة، الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر(41).

العثمانيون: الصورة الأولى:

الصورة الأولى في تاريخ الوصول العثماني لبلاد الشام تأتي من مؤرخ قلما اهتم الباحثون به، وهو الدمشقي أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري الشهير بابن الحمصي (841-934هـ/1437-1527م) ، وهو واحد من أربعة مؤرخين اهتموا بتدوين حدث الدخول العثماني للمنطقة العربية وبخاصة في بلاد الشام ومصر، وهم محمد بن طولون الصالحي(ت: 953هـ/1546م)(42)، ومحمد بن إياس (ت: 930هـ/ 1523م)، وابن زنبل الرمال (ت: بعد 1552م) في مصر.

ولعل ابن زنبل وابن الحمصي لم يلقيا الاهتمام الكافي من قبل المؤرخين، مع أنهما معاصران للحدث، وشاهدا عيان على جيش السلطان سليم الأول في حربه مع الجيش المملوكي.

يقدم ابن الحمصي تاريخاً منضبطاً بأحداث السنين، ولكن ما يميزه عن ابن زنبل هو كونه يمتلك وعيا للكتابة التاريخية ولمفهومها، وذلك حسب ما ظهر في مقدمته التأريخية بقوله: "وبعد، فعلم التاريخ جليل المقدار، عظيم الأخطار.."(43).

يروي ابن الحمصي تطورات العلاقة بين السلطنة المملوكية والسلطنة العثمانية والمراسلات بين السلاطين والصلح بينهم(44) ، إلى أن يصل إلى أحداث شهر ربيع الآخرة ووصول العساكر السلطانية المملوكية لدمشق(45).

ويمهد ابن الحمصي لواقعة مرج دابق ويوضح أن مقصد وصول السلطان قانصوه الغوري لدمشق، ومن ثم زيارته لحلب، والتوجه إلى الديار الرومية للصلح بين السلطان سليم وسلطان الروم والسلطان إسماعيل الصفوي سلطان العجم(46).

وفي تقصي ابن الحمصي لأخبار سفر السلطان الغوري يشير إلى وصول "مرسوم السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري متضمناً أن سلطان الروم بغى علينا"(47)، ويدخل مباشرة في حادثة التقاء الجمعين "ظاهر مدينة حلب بمرج دابغ/ دابق" وبدون تفاصيل يذكر أسماء الأمراء المماليك الذين قتلوا، ومن ثم السلطان قانصوه الغوري، ويتابع هروب العسكر المصري إلى حلب "في أسوأ حال"، واللافت موقف أهالي حلب من عسكر الغوري... "ولم يمكنوهم من الدخول إليهم وقتلوا من العسكر جماعة...

واستمروا منهزمين غالبهم مشاة، عراة، حفاة، ومات غالبهم في الطريق من الجوع والعطش، فدخلوا إلى دمشق يوم السبت ثاني شعبان، في أسوأ حال..."(48).

تتغير السلطة بشكل سريع لدى ابن الحمصي، فهو يقتضب في سرده لمجريات الأحداث بعد مرج دابق؛ إذ يدخل السلطان سليم حلب "وملك البلد وتسلم القلعة.."(49)، ثم يتوجه إلى دمشق ويدخلها في يوم السبت مستهل رمضان 922هـ/28 أيلول 1516م، ثم في يوم الجمعة سابع رمضان نزل إلى الجامع الأموي وصلى الجمعة به، ورسم للخطيب بمبلغ ألفي درهم، وكان الخطيب قاضي القضاة ولي الدين ابن الفرفور، وفرق على الناس أموالاً وذبح أغناماً على باب الجامع... وثم في حادي عشر رمضان صلى الجمعة بالجامع الأموي ودعت له الخلق وكان نهاراً مشهوداً، ورفع المظالم والمشاجرات، ولم ير الناس منه إلا خيراً..(50).

يمر ابن الحمصي بشكل سريع أيضاً على معركة الريدانية واصفاً ترتيب الجند، وتراجع القوات المصرية بقيادة طومان باي، دونما أن يسهب بالسرد التاريخي على خلاف ما رواه ابن زنبل الرمال بشكل مفصل ومباشر(51).

غزو وفتح عثماني أم تجديد إلهي:

أوقع الدخول العثماني لمصر وبلاد الشام المؤرخين على ما يبدو في إشكالية قلما نجدها في مدونات التاريخ، فإذا كان ابن علوان الحموي يعدّ وصول العثمانيين لحلب هو "نسخ الله تعالى"(52) للمماليك بدولة جديدة، فإن وصولهم لمصر أخذ إليه بشكل مفارق، وفي صورتين: الأولى باعتباره "غازياً"، وهذه الصورة نجدها عند مؤرخ اللحظة العثمانية في مصر الرحال أحمد بن علي الشهير بابن زنبل (توفي بعد 980هـ/1572م)، في حين عُدّ الدخول العثماني لمصر فتحاً مبيناً في نظر على بن محمد اللخمي الإشبيلي (من علماء القرن 10هـ/16م)(53).

ويتضح من تاريخ الإشبيلي إعجابه بالسلطان سليم العثماني، واعتبار مجيئه لحكم مصر نهاية للجور والظلم المملوكي بقوله: " هو ملك الزمان على الإطلاق، المرتقي كرسي الخلافة بالاستحقاق، مؤسس مباني العلم والإيمان، سائس ممالك لمعاني الإيمان.."(54). ويزيد الإشبيلي باعتبار وصول السلطان سليم لمصر تحقيقا لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من ينصر هذا الدين.."(55).

الحدث السياسي العثماني عند ابن زنبل لم يخرج عن كونه سلسلة من الوقائع المروية، وصورة "العسكر العثماني" لم يخرج عن كونه غازياً، ومع ذلك فالسلطان سليم "مالك رقاب الأمم صاحب السيف القلم" بنظره: خليفة الله تعالى في العالم، مولى ملوك العرب والعجم(56).

النص التاريخي عند ابن زنبل سرد وقائع، وفيه ميلٌ شديد للدخول في التفاصيل، والتاريخ يبدو حدثا سياسيا واحداً تمثل بالتقاء رأسين أو سلطانيين متنافسين، وهو يذكر

أسباب الشقاق المملوكي العثماني ويستشهد بالآية الكريمة: (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)(الأعراف: 128)؛ وذلك لتبرير ما حصل في زمانه.

لدى ابن زنبل يحضر التاريخ اليومي بكثافة، عشية الوصول العثماني؛ إذ يتوسع في الحديث عن أمراء الدولة وأصحاب ومشايخ العربان(57). ومن حيث الصفات، فإن عقلية التدوين عند ابن زنبل للتاريخ لحظية وآنية، فهو يبدو وارثاً للتقليد الكتابي التاريخي العربي في أسباب زوال الدول والأمم وحكم السلالات، من حيث رواية أسباب التوتر والاختلاف وغياب العدل بين الناس، ومن ذلك:

"فهرب أخوه قرقود (أخو السلطان سليم) إلى مصر واستجار بالغوري، فأجاره، فأرسل السلطان سليم يطلبه، فأبى الغوري، فاشتدت العداوة بين الغوري وبينه"(58).

ويتابع ابن زنبل ممارسته التقليدية في سر أسباب التوتر العثماني المملوكي العثماني بقوله: "ومما أوقع بينهما العداوة أنه لما غزا السلطان سليم سلطان العجم وجاء بالعساكر إلى البيرة -قلعه بين حلب والثغور الروبية- أمر علاء الدين نائبها أهالي مرعش ألا يبيعوا على عسكر السلطان سليم شيئا مطلقاً..."(59).

هذا التوثيق الذي يمارسه ابن زنبل للعلاقة بين سلطنتين ونظامين حاكمين - المملوكي والعثماني- يتصل بذكر العلاقات العثمانية الصفوية أيضا، ممهدا بذلك إلى التقاء الطرفين في مرج دابق "وكان يوم الحرب يوم الأحد المبارك الثالث والعشرين من رجب سنه 921هـ/14 أغسطس 1515م"(60).

تخسر الجيوش المملوكية أمام الجيش العثماني في مرج دابق، وسبب خسارة العسكر المصري برأي ابن زنبل أنهم "كسروا قهراً باختلافهم في بعضهم ومماألتهم لأنفسهم على سلطانهم، فإنهم تسببوا في هلاك سلطانهم، وهلاك أنفسهم وكل ذلك ثمرة العناد"(61).

ويتبادل السلطان طومان باي(62) الرسائل مع السلطان سليم، ويظهر ابن زنبل رفض طومان باي الخضوع للسلطان سليم وإصراره على القتال؛ ودعوته لقتال الجند العثماني بقوله مخاطباً أهل مصر: " أرى أن نقاتل عن بلادنا وحريمنا وأرزاقنا أو نُقتل عن آخرنا.."(63).

والصراع على مصر عند ابن زنبل صراع بين روم وعرب، وصدام بين هويتين تتدافع كل منهما للتفوق، "فلما رأى العرب ما حل بهم من الروم اغتاظت قلوبهم وقال بعضهم إلى بعض: انتظروا إلى هؤلاء العلوج"(64).

هذه النظرة للقادم الجديد بدت جلية في تاريخ ابن زنبل من خلال النعوت والسباب الذي كان قادة المماليك يوجهونه للجند العثماني، والذي يصر ابن زنبل على تسجيله وتدوينه من مثل "يا علوج الروم يا كفرة يا فجرة"(65).

لا يترك ابن زنبل تفاصيل مشهد الانتقال المملوكي العثماني في مصر؛ بل يتابعها

بكثافة، واللافت في روايته للصراع بين بقايا المماليك بقيادة السلطان طومان باي ومن معه من العرب والبدو في مواجهة العثمانيين، هو إدراك ووعي البدو والعرب في مصر لمعنى انقضاء الدول، فلما سأل شيخ قبيلة البكارية وجوه العرب عن السلطان طومان باي وطلب إليهم الوقوف معه قالوا: "ما سمعنا عنه سوءاً أبداً ولا في زمن الغوري ولا في هذا الآن، وإنما هذه الطائفة دولتهم قد زالت وولت، وأوقاتهم مالت، وأيامها ولت، وأعزاؤها ذلت، ولو قمنا معه ونصرنا لا يفيد ذلك بعد أن ولت دولته وإن تركنا نصر السلطان سليم واعتزلنا لا نسلم من عتبته علينا فيما بعد ذلك"(66).

تشترك الأفعال وتتوارد الأخبار لتقودنا إلى نتيجة واحدة وهي الخروج من دولة الظلم "الجركسية" إلى دولة العدل، أي من الظلام إلى النور وهو ما حرص ابن زنبل على إظهاره بشكل غير واع؛ لكن الناس في عصره كانوا يرونه كذلك.

النهاية الاستشهادية لطومان باي(67) وجدت تبريرها برؤية ومنام أنهى المواجهة بين فلول المماليك والجيش العثماني، وهي رؤية تتكرر في مفاصل التاريخ وعند زوال الدول ومع الأحداث الكبرى، وهي جزء من تقليد متوارث يقضي بحضور الغيبيات وغلبتها على العقل. وطومان باي الذي يظهر في تاريخ ابن زنبل مدافعاً عن عروبة أرض مصر يبدو مدركاً أن زوال دولته كان استحقاقاً راهناً؛ لكنه أراد الإبقاء على الروح المعنوية لدى بقية جنده إذا خاطبهم قائلا: "والله يا إخواني ما أظن إلا أن دولتنا قد زالت، فإنني أرى أن كلما فعلنا شيئا نريد أن تكون فيه المصلحة فما يكون أمرنا فيه إلا بضد ما نريد، وأن الغالب على ظني زوال ملكنا"(68).

بالعودة إلى الرؤيا التي تمهد إلى هزيمة، وهي غالبا ما تتكرر، ومما جاء فيها أن طومان باي قال -لما أطل على وادٍ كان يريد أحد شيوخ القبائل وضعه مع جنده فيه لحمايته في جيش السلطان سليم-: "إني مخبركم بمنام رأيته من يومين؛ رأيت نفسي أني بهذا الوادي وأني على جانب البحر المالح، وقد قامت فتنة عظيمة، وأظلمت الدنيا وما بقي أحد مع أحد، وإذا بخمسة كلاب سود أحاطت بي وأرادت أن تفترسني، فجذبت سيفي وأردت أن أضربهم به وإذا به قد طار بين يدي وسقطت عمامتي ودفعت الكلاب علي وقبضوني فصرت بينهم كقطعة لحم كل واحد ينهشني من ناحية فابتأست من نفسي"(69).

الرؤيا الثانية تتلو هروب من كان حول السلطان طومان باي، وهي الرؤيا الأخيرة التي تختتم مسار المقاومة المصرية المملوكية، فقد خاطب طومان باي أمراءه عندما انقلب عليه شيوخ البدو: "إني أريد أن أخبركم بما رأيت في هذه الليلة: رأيت أن قائلاً يقول لي: رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول لك: إن دولتكم قد زالت، وعمركم قد فرغ، وأنت جارنا في الجنة بعد أربعة أيام؛ ارجع عن القتال، فلا فائدة لك فيه، وأنا قد عزمت على رمي نفسي في هذا البحر المالح..."(70)، وقال لهم: كل واحد منكم يذهب إلى حيث أراد، وهذا آخر اجتماعنا في الدنيا والآخرة(71)، ثم يدون ابن زنبل الحوار الذي دار بين طومان باي بعد القبض عليه، فلما دخلوا به على السلطان سليم خان سلم عليه بسلام

الملوك فرد عليه السلطان سليم كما يجب ينقص مقامه في سلامه(72).

والمشهد الآن ينقلب بعد ما كان مواجهة بين جيشين يصبح مباشرة بين الفرقاء، والعودة التي يرسمها ابن زنبل تبدو إيجابية للسلطان سليم، "فنظره وتأمله بعين الفراسة فوجد فيه كل شيء يشهد له بالشجاعة والفروسية وكمال العقل..."(73).

يبرر السلطان سليم غزوه لمصر بموقف المماليك منه في حربه مع الصفويين؛ إذ قال: " أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار، وأنا أكتب متوجهاً إلى جهاد الرافضة والفجار.."، والسبب الآخر رفض طومان باي أن يكتب باسم السلطان سليم، وأن يخطب به في الجمعة وقتله لرسله، وطومان باي يرد على السلطان سليم فيما قدمه من أسباب لغزوه مصر واتهامه للمماليك بأنهم كفرة بقوله: "وبعد حضوري إلى الشام سمعت أنك عملت سلطاناً..وأنت لست أهلا لها، والسلطنة لا تكون ولا تليق إلا لرجل يكون آباؤه وأجداده سلاطين... ومن أين لكم السلطنة ومن أين لكم الإمارة وكلكم أولاد نصارى"(74). ويضيف سليم خان: "والله ما كان قصدي أذيتك، ونويت الرجوع حتى حلب لو أطعتني من الأول وجعلت السكة والخطبة باسمي ما جئت ولا دست أرضك".

ويرد طومان باي على السلطان سليم: "الأنفس التي تربت على العز لا تقبل الذل، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب، لا أنتم أفرس منا ولا أشجع..فقال السلطان سليم: والله مثل هذا الرجل لا يقتل ولكن أخروه في الترسيم حتى ننظر بأمره"(75)

ولما كان الموعد المحتوم يقترب "ما زال السلطان طومان باي على سهرته إلى الصباح فلما تباينت الوجوه وإذا بالجاويشيه جاء إليه وهم مسرعون، فقام معهم وساروا به إلى أن اقترب من خيمة السلطان سليم وأوقفوه... وإذا بقابوجي اغاسي قد خرج من عند السلطان وقال: قد برز أمر السلطان بأن تسيروا به إلى باب زويله وتصلبوه هناك...وجاء بالبغلة وأركبوه عليها وقيدوه تحت القلعة...وكان ذلك اليوم على أهل المملكة أشأم الأيام، وبكت عليه الأرامل والأيتام...وحضر السلطان سليم الصلاة على طومان باي، وأرسل ثلاثة أكياس من الفضة تصدقوا به عليه"(76).

وينتهي بذلك رواية فصل من فصول التاريخ الحديث، "ثم إن السلطان سليم انصرف وأمر بالسفر، فلما سمعت الجراكسة بذلك اطمأنت قلوبهم"(77).

خاتمة:

السؤال بعد أن أخذنا دخول البرتغال للمنطقة مقدمة موازية لحدث الانتقال بين المماليك والعثمانيين، هل كان تأريخ المؤرخين للزمان هو مجرد ترتيب دولة تحكم بعد دولة؟... وهنا يلاحظ الدارس أهمية الذاكرة السياسية في تدوين الزمان العربي الحديث، فمن اقتضاب في الأخبار لدى ابن الحمصي إلى توسع ابن زنبل ومعاصره ابن طولون.

فتبرز لدى المؤرخين أهمية اتصال الملك ودوام الدولة حتى لا ينقطع التكليف

والاستخلاف في الأرض.

وقد ظهر واضحاً أهمية دوام الملك والدول في الإصرار على دوام الاتصال بين أمة وأخرى، مهما كان الزمان منفلتاً، وبالتالي فبالرغم من جسامة الأحداث التاريخية التي مرت بها الأمة إلا أنها كرست زمانا سياسيا بامتياز، وجب تأريخه وهو زمن التداول وتعاقب الأمم.

****

الحواشي:

*) باحث وأكاديمي من الأردن.

1) انظر:

Claude Cahen,"Notes sur I' historiographie danx la communauté musulmane médiéval," R. E.I. Geuthnier, no.13 [s.d].

2) ينعي عبد الرحمن الجبرتي واقع التاريخ في عصره ويطالب في مقدمته بالاهتمام بالتاريخ بقوله: "ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنساني تعتني بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا من بعد خلف إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه، وتركوه وأهملوه، وعدوه منشغل البطالين، وأساطير الأولين، ولعمري إنهم معذورون وبالأهم مشتغلون.. فإن الزمان انعكست أحواله وتقلصت ظلاله وانخرمت قواعده في الحساب.. "الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت: 1236هـ/1821م) . تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، 3ج، د.ط، دار الجيل، بيروت. ص3.

3) يقول محمد خليل المرادي (ت: 1206هـ/1791م). في مقدمته لسلك الدرر : "علما مني بأن علم التاريخ والأخبار ونقل المناقب وحفظ الآثار أمر مهم عظيم، وشيء خطره جسيم طالما صرف فيه المحدثون أوقاتهم.. "المرادي، سلك الدرر، تحقيق أكرم العلبي، دار صادر، ط2001 ،1، ج1، ص6.

4) يقول ابن الحمصي في مقدمته: "..وبعد، فعلم التاريخ جليل المقدار، عظيم الأخطار، أنواره على ممر الدهور لا تطفأ.. "ابن الحمصي، احمد بن محمد الأنصاري (ت: 934هـ/1527م) ، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، دار النفائس، بيروت، ط2000، ص38.

5) ومن الأمثلة على ذلك مؤرخ دمشق ابن كنان الصالحي والشوكاني في كتابه البدر الطالع وغيرهما.

6) انظر: فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، مراجعة محمد توفيق حسني، بغداد مكتبة المثنى، 1963، ص26.

7) الجبرتي عبد الرحمن بن حسن، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، د.ت، ج176 ،2.

8) قطب الدين النهروالي (ت: 990هـ/1582م) البرق اليماني في الفتح العثماني، عني بنشره حمد الجاسر، ط1967 ،1. ص18.

9) من أمثلة ذلك إسهام كل من الأمير البرتغالي هنري الملاح (Infante D. Henrique) 4 مارس 13 - 1394 نوفمبر 1460م) الابن الثالث لملك البرتغال يوحنا الأول الذي لم يكن ملاحاً؛ بل حصل على هذا اللقب بسبب تنظيمه للرحلات التي اكتشفت أراضي جديدة ومول رحلات الكشوف لثلث سواحل إفريقيا الغربية. وينظر له على أنه الشخص الذي بدأ التوسع الاستعماري الأوروبي. وفي 30 ابريل 1492م وقع الملوك الكاثوليك الأسبان، مع كريستوفر كولومبس اتفاقية جاء فيها أنّ كولومبوس "كمكتشفٍ للجزر والقارات في البحر والمحيط "وانطلاقا مما سبق سيُمنح رتبة أمير البحار والمحيطات كقرار ملكي يسري في جميع أنحاء البلاد، ويُضاف إلى ذلك أنه سيُمنح 10% من الذهب والبضائع التي سيُحضرها معه بدون أية ضرائب وشجع الإمبراطور شارل الخامس الرحالة فرديناند ماجلان للبحث عن الطريق الغربي للهند العام 1519م. انظر عن التاريخ الأوروبي الحديث والكشوف الجغرافية في: عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث، دار النهضة العربية، د.ت، ص61 ،49-48 ؛ اريك وولف، أوروبا ومن لا تاريخ لهم، ترجمة فاضل جتكر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط2004 ،1، ص161.

10) إريك وولف، أوروبا ومن لا تاريخ لهم، ص185-168.

11) وندل فيليبس، تاريخ عمان، ترجمة محمد أمين عبدا لله، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1981، ص31.

12) استخدمت هذه التسمية في الأصل للبحارة، وهي تحريفا لكلمة ليفانتو (Levantino) الإيطالية التي أطلقت من قبل البنادقة الشرقيين نسبة لكلمة ليفانت/الشرق، وقد استخدم المماليك والعثمانيون تسمية لاوند لبحارتهم، وفي العصور المتأخرة أصبح المصطلح يطلق على المرتزقة الذين يبيعون خدمتهم القتالية أو ما يسموا بالجند نصف المحلي نصف النظامي. انظر: حسن آغا العبد، قطعة من تاريخ حسن آغا العبد، تحقيق يوسف جميل نعيسة، دمشق، 1979 ، ص109 . وانظر: عبد الكريم رافق، مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام في القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر، مجلة دراسات تاريخية، ع1980 ،1، ص95-66.

13) النهراولي، البرق اليماني، ص19.

14) كان معظم أفراد الأسطول المصري من المماليك، وقد أرسلهم السلطان قانصوه الغوري بدعوة من سلطان كجرات المسلم مظفر شاه بن محمود شاه. وبعد هذه المعركة

شرع البرتغاليون بالسيطرة المباشرة على الموانىء الرئيسة وتدمير بعضها. واستمر احتكار البرتغاليين للبحار حتى إنشاء شركة الهند الشرقية البريطانية ومعركة سوالي في العام 1612م. انظر: المزيد (المعرفة) تماضر.

15) البطريق ونوار، التاريخ، ص53.

16) كان قيام دولة اليعاربه في عمان 1151-1034هـ/1738-1624 إيذانا بأفول نجم البرتغاليين، وكانت مهمة الإمام ناصر بن مرشد بن سلطان (1059-1034ه\1649-1624م) تحرير البلاد من الاحتلال البرتغاليين. انظر: للمزيد: ابن زريق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، وزارة التراث والثقافة، مسقط، 1983 وانظر محمود علي الداود، محاضرات عن التطور السياسي الحديث معهد الدراسات العربية العالية – جامعة الدول العربية، ص19-18.

17) للتدليل على ذلك يمكن للقارئ أن يستشف لموقف من العثمانيين من خلال بعض المدونات التاريخية من مثل: قطب الدين النهروالي في البرق اليماني. وأحمد بن علي بن زنبل (توفي بعد 980هـ/1572م) تاريخ غزو السلطان سليم مع قانصوه الغوري، تحقيق أحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2004 ،1.

18) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: 808هـ/1406م) المقدمة، منشورات دار الكتب العلمية بيروت، ط 1993 ،1، ص27.

19) يشكر الباحث المؤرخ السوري عبد الكريم رافق الذي زوده بنسخة مصورة من المخطوط وهي تقع في51 ورقة.

20) ابن علوان، رسائل، ق 3و.

21) ابن علوان، رسائل، ق 3و.

22) المصدر السابق، ق5ظ.

23) المصدر السابق، ق3و.

24) المصدر السابق، ق8ظ.

25) المصدر السابق، ص8ظ.

26) المصدر السابق، ق11ظ.

27) المصدر السابق، ق12و.

28) المصدر السابق، ق13و.

29) المصدر نفسه، ق18ظ.

30) ابن علوان، رسائل، ق19ظ.

31) ابن علوان، رسائل، 17-13ظ.

32) ابن علوان، رسائل، ق 10و.

33) المصدر السابق، ق19-18و.

34) ابن علوان، رسائل، ق 6و.

35) ابن علوان، رسائل، ق 7و.

36) ابن علوان، رسائل، ق 10.

37) ابن علوان، رسائل، ق 11.

38) ابن علوان، رسائل، ق 12.

39) ابن علوان، رسائل، ق15.

40) ابن علوان، رسائل، ق 20.

41) ابن علوان، رسائل، ق 20ظ.

42) يلاحظ في رواية محمد بن طولون الصالحي استخدامه لمصطلح "سلطاننا"، ويقصد قانصوه الغوري و"ملك الروم أو الخنكار "للإشارة للسلطان سليم، ولكنه لا يلبث إلا- وأن يشير إلى اجتماع مشايخ دمشق في المصلى بميدان الحصى "واتفقوا ومشايخ الحارات على تسليم البلد...ثم يوم الجمعة 26 شعبان خطب على منبر الجامع الأموي الولوي بن الفرفور باسم ملك الروم وكذا في سائر الجوامع.. وفي بكرة مستهل رمضان وصل ملك الروم سليم خان بن بايزيد...إلى المصطبة لصيق القابون الفوقاني في عسكر عظيمة لم نر مثلها، وقدامه ثلاثون عربة وظنت أهل دمشق أن السماء انطبقت على الأرض ولما نزل لم يجتمع به أحد، ولكن القضاة الأربعة لما اجتمعوا في الدرب بقاضي العسكر، فجاء بهم إلى الخنكار فباسوا يده الشافعي ثم الحنفي ثم الملكي ثم الحنبلي.. "ابن طولون، شمس الدين محمد، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، الدار المصرية، القاهرة 1964، ج2، ص31-24.

43) ابن الحمصي، حوادث، ص38.

44) ابن الحمصي، حوادث، ص210 ،214 ،226 ،430 ،501.

45) المصدر نفسه، ص921.

46) المصدر نفسه، ص519.

47) المصدر السابق، ص521.

48) المصدر السابق، ص523.

49) المصدر السابق، ص525-524.

50) المصدر السابق، ص525-524.

51) المصدر السابق، ص528.

52) المصدر السابق، ق20.

53) نشر هذا التاريخ بعنوان الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، مع تاريخ غزو السلطان سليم لابن زنبل، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت – ط، 2004 وكان الكتاب قد طبع العام 1962 في القاهرة بمطبعة عيسى البابي الحلبي تحقيق المستشرق هانس أرنست.

54) الإشبيلي، الدر المصان، ص175.

55) الإشبيلي، الدر المصان، ص165.

56) ابن زنبل، تاريخ غزو السلطان مسلم مع قانصوه الغوري، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت – ط، 2004، ص11.

57) ابن زنبل، تاريخ، ص17-15.

58) ابن زنبل، تاريخ، ص18.

59) المصدر نفسه، ص18.

60) ابن زنبل، تاريخ، ص25.

61) ابن زنبل، تاريخ، ص37.

62) الأشرف طومان باي آخر سلاطين المماليك الشراكسة في مصر، تولى مصر نائبا عن السلطان قانصوه الغوري، وخاض معركة الريادانية، وقاد المقاومة المصرية ضد الجيش العثماني إلى أن اعتقل وهو السلطان الوحيد الذي شنق على باب زويلة، وذلك في يوم الجمعة 21 ربيع الأول 923هـ/13 إبريل1516 م. ويعتبر من وجهة نظر بعض المؤرخين المصرين قائدا وشهيدا. انظر: نموذج ذلك في دراسة، عماد بدر الدين أبو غازي، طومان باي السلطان الشهيد، دار ميريت، القاهرة، 1999.

63) ابن زنبل، تاريخ، ص41.

64) ابن زنبل، تاريخ، ص95.

65) ابن زنبل، تاريخ، ص97.

66) ابن زنبل، تاريخ، ص102.

67) يلاحظ أن السلطان طومان باي كان عارفاً بأن دولة المماليك زائلة ولكنه مضى في مقاومة السلطة الجديدة، وذلك في قوله مخاطباً أمراء جنده: "يا أمراء الأغوات؛ الرأي عندي أن نتوكل على الله ربنا سبحانه وتعالى، فإن الأمر بيده، وما يضرنا إذا متنا شهداء فإن الله تعالى يعلم أنهم بغوا علينا..." ابن زنبل، تاريخ، ص103.

68) ابن زنبل، تاريخ، ص116.

69) ابن زنبل، تاريخ، ص118.

70) ابن زنبل، تاريخ، ص122.

71) ابن زنبل، تاريخ، ص127.

72) ابن زنبل، تاريخ، ص127.

73) المصدر نفسه، ص129.

74) ابن زنبل، تاريخ، ص129.

75) ابن زنبل، تاريخ، ص130.

76) ابن زنبل، تاريخ، ص136.

77) المصدر نفسه، ص143.